حفريات في بعض المعتقدات الشعبية عند المغاربة من خلال رحلة "وصف إفريقيا" للحسن الوزان

د. مجيد هلال
باحث في التاريخ والتراث
المغرب

ملخص:

إن كتاب "وصف إفريقيا" يعد من بين الوثائق والسجلات التي استطاعت أن تنقل إلينا جانبا مهمّا من تاريخ المغرب؛ والأمر هنا، يتعلق بمعتقدات وذهنيات المغاربة، ومختلف تمثلاتهم وأفكارهم إزاء ظواهر عدة، وفي مواقف مختلفة، من هنا تنبع أهمية هذه الدراسة، التي تهدف بالأساس إلى محاولة استعراض بعض جوانب هذه المعتقدات وما يرتبط بها من أفكار و ذهنيات، من خلال ما رصده ووثقه الحسن الوزان في نص رحلته حول المغرب و المغاربة خلال القرن 16 الميلادي، دراسة تستعين بمنهج وصفي تحليلي يقف عن الشواهد النصية التي توثق لهذه المعتقدات، و محاولة استنطاقها و الكشف عن خصوصياتها و أبعادها.

كلمات مفتاحية: ذهنيات، معتقدات، المغاربة، النص الرحلي، الحسن الوزان.

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

هلال، مجيد. (2024، أكتوبر). حفريات في بعض المعتقدات الشعبية عند المغاربة من خلال رحلة "وصف إفريقيا" للحسن الوزان. مجلة البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية، المجلد 1، العدد 7، السنة الأولى، ص 51-61.

Abstract:

The book "Description of Africa" is among the documents and records that were able to convey to us an important aspect of the history of Morocco, and the matter here is related to the beliefs and mentalities of Moroccans, and their various representations and ideas towards several phenomena, and in different situations, hence the importance of this study, which aims mainly to try to review some aspects of these beliefs and the associated ideas and mentalities, through what Hassan Al-Wazzan monitored and documented in the text of his journey around Morocco and Moroccans during the 16th century AD. A study that uses a descriptive and analytical approach that stands for the textual evidence that documents these beliefs, and tries to interrogate them and reveal their specificities and dimensions..

Keywords : Mentalities, Beliefs, Moroccans, travel text, Hassan El Wazzan.

مقدمة

لا يمكن لأي باحث في التاريخ، خصوصا ما يرتبط بالتاريخ الاجتماعي وما يرتبط بتاريخ الذهنيات والمعتقدات و العادات، أن ينكر أو يتجاهل أهمية كتب الرحلة في استخلاص مادة علمية رصينة، تهم جوانب عدة، وفي طليعتها ما يرتبط بالحياة الثقافية للشعوب، على اختلاف الأزمنة، وتعدد الأمكنة؛ حيث تزخر هذه المؤلفات بعناصر ثقافية شكلت الرصيد والموروث الثقافيين، لتكوّن صورة إثنوغرافية حفظتها تلك الكتب، ونقلها إلينا أولئك الرحالة، وجعلتنا نسلط الضوء من جديد عليها حتى يتسنى لنا فهم جزء مهم من تاريخ هذه الأمم، خاصة في جانبه الاجتماعي، وما يرتبط بذهنيات ومعتقدات تلك الشعوب، إذ نقلت عادات تلك الشعوب وأعرافها وتقاليدها، وصورت كل ما يرتبط بأنماطها الثقافية، في بُعْديها المادي وغير المادي، "سواء ما كانت عليه، أو ما طرأ عليها من تغيرات أو زوال أو تجديدات أو إصلاحات. وكانت هذه الأوصاف على جانب كبير من الأهمية في علم الآثار والفنون".[1]

ولعل رحلة " وصف إفريقيا" للحسن الوزان[2]، يبقى من النصوص التي تعكس القيمة العلمية التي تحظى بها هذه المصنفات، ومدى أهميتها في كشف اللثام عن جوانب عدة من تاريخ الأمم في حياتها الاجتماعية، وصيرورتها الثقافية؛ فكتاب "وصف إفريقيا" وثيقة إثنوغرافية تاريخية، توثق لثقافات متنوعة، في حقبة زمنية بعيدة نوعا ما؛ وبالتالي، فقد استطاع الحسن الوزان أن يقتحم غمار تلك الثقافات، خاصة ما يرتبط بجانب المعتقدات، هذه الأخيرة، لها من الخصائص التي تميزها عن سائر الأنواع الشعبية الأخرى؛ فاللغة الشعبية تنطق، وتكتب، وتتطلب وجود شريك لِيَتِمَّ معه حديث، ومجتمع يتفق على رموز هذه اللغة. كذلك الزيّ الشعبي أو الحلي وأدوات الزينة كلها تستمد قيمتها من إظهارها للناس وإعلانها. والعادات الشعبية لا بد من أن تمارس؛ فتظهر للملإ. أما المعتقدات الشعبية، فهي على خلاف كل هذه العناصر الشعبية إذ هي صعبة في التناول والدراسة والبحث لأنها خبيئة في صدور الناس، وهي لا تلقن من الآخرين، ولكنها تختمر وتتشكل بصعوبة، يلعب فيها الخيال الفردي دوره ليعطيها طابعا خاصا، وهي مع

---

[1]- نوال عبد الرحمان الشوابكة، **أدب الرحلة الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري**، دار المأمون للنشر، عمان، ط1، 2008، ص159.

[2] - جغرافي و رحالة ولد في غرناطة، سنة 1483م، ينحدر من أسرة مغربية تعود لقبيلة بني زيات الزناتية بشمال المغرب، وقد نشأ ودرس بمدينة فاس، و اشتغل عدة وظائف منها بالسلك الديبلوماسي لدى الدولة الوطاسية، تعرض للأسر و هو راجع من تونس بحرا سنة 1520م، من طرف قراصنة إيطاليين، و تم تقديمه هدية للبابا جان ليون العاشر، فقرّبه منه، و كلفه بتدريس اللغة العربية لرجال الكنيسة، وسماه ب جون ليون أو يوحنا الأسد، من أشهر مؤلفاته كتاب "وصف إفريقيا".

تمكنها في أعماق النفس الإنسانية موجودة في كل مكان، سواء عند الريفيين أو الحضر، عند غير المثقفين كما عند الذين بلغوا مرتبة عالية من العلم والثقافة[1].

لذلك؛ سنحاول في هذه الدراسة، قدر المستطاع، أن نتتبع نص رحلته، ورقة ورقة، حتى نرصد داخل هذا الفضاء المعرفي مختلف جوانب المعتقدات الشعبية عند المغاربة خلال القرن السادس عشر الميلادي، وما ينشطها من ذهنيات طبعت العقلية المغربية.

إذن؛ فما بعض جوانب ومظاهر هذه المعتقدات الشعبية كما وردت في رحلة الحسن الوزان خلال القرن 16 الميلادي؟ وما أبعادها وخصائصها؟ وكيف يمكن من خلالها الكشف عن بعض خصوصيات الذهنية المغربية و ما يطبعها من أنماط التفكير و الاعتقاد؟

1 – معتقدات ذات بعد ديني مرتبطة بعناصر من الطبيعة

إن كتاب "وصف إفريقيا" يعد من بين الوثائق والسجلات التي استطاعت أن تنقل إلينا جانبا مهمّا من تاريخ المغرب؛ والأمر، هنا، يتعلق بمعتقدات وذهنيات المغاربة، ومختلف تمثلاتهم وأفكارهم إزاء ظواهر عدة، وفي مواقف مختلفة، مما جعلنا نغوص في بنية هذه الذهنيات، وخصائص هذه المعتقدات عبر شواهد من نص رحلتنا، الذي مكّننا من القيام بحفريات في هذا الجانب، ولعل أهم ما لفت انتباهنا بخصوص هذا الموضوع أن الذهنية المغربية كانت، متأثرة بفكر خرافي، ومعتقدات ماورائية، شكلت - مع مرور الزمن - ظواهر ثقافية طبعت هذه الذهنية، وترسخت في وُجدان المجتمع المغربي؛ فالحسن الوزان، في معرض حديثه عن سكان إحدى قرى المغرب، وهي "بني وزروال"[2]، يقول: "توجد بهذا الجبل، في بطن واد، فرجة تشبه باب كهف يخرج منها لهب عظيم باستمرار، لاحظت أن كثيرا من الغرباء يقصدون هذا الوادي لمشاهدة هذه النار، ويلقون فيها أغصانا وقطعا من الخشب فتحترق على الفور، وهذا أعجب شيء شاهدته من بين الظواهر الطبيعية، ويعتقد بعض الناس أن الفرجة هي فم جهنم"[3]. وفي موضع آخر، يقول: "تجهل العامة نواميس الطبيعة جهلا تاما، حتى إنها تنظر إلى جميع الظواهر الطبيعية كيفما كانت كتصرفات إلهية"[4]. فالحسن الوزان هنا يصف طبيعة التفكير أو الفكر الذي كان يحكم حياة

[1] - محمد الجوهري، **الدراسة العلمية للمعتقدات الشعبية**، دار الكتاب للنشر القاهرة، ط1، 1978، ص56

[2] - ينطق بها اليوم "بني زروال"، لكن التراجم القديمة تتحدث عن الزرواليين، كما تتحدث عن الزرويليين؛ الأمر الذي يؤكد ما ذهب إليه الحسن الوزان من وجود جبلين لبني زرويل ولبني وزروال حسب صاحبي الترجمة.

[3]- الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ج1، ترجمة محمد حجي و محمد الأخضر، دار الغربي الإسلامي، بيروت، ط2، 1983، ص 337.

[4]- نفسه، ص 87 - 88.

المغاربة؛ فكر يطغي عليه البعد الغيبي الماورائي، ويغيب فيه المنطق والتفسير العقلاني للظواهر الطبيعية. بل إن الوزان نقل إلينا مواقف أخرى تصب في نفس الإطار، وتكشف عن المعتقدات التي تؤطر حياة هذا المجتمع، ومن ضمنها بعض الأفكار التي يؤمن به المغاربة، والتي هي بعيدة كل البعد عن أي تفسير علمي مجرد، وإنما تبقى حبيسة تفسيرات غيبية في كثير من المواقف، تصنف ضمن الخرافات، وممّا يزكي هذا الطرح ما جاء به الوزان في كتابه بخصوص بعض الروايات الخرافية التي وقف عليها، ولاحظها في أوساط المغاربة، وغالبها يرتبط بعناصر طبيعية، وفي مقدمتها الماء، وما شكله كعنصر رئيس نُسجت وحِيكت حوله عدة أساطير وأفكار، ولدواعٍ مختلفة، فقد تحدث عن طلاسم وضعها بعض حكام مدينة مراكش عند إنشاء القنوات الجالبة للماء إلى المدينة؛ حيث قال عنهم: "يؤكدون أن ماء نهر أغمات يصل إلى مراكش، يؤخذ بالقرب من أغمات، ويتابع جريانه في قنوات تحت الأرض، وقد أمر عدد من الملوك بالبحث لمعرفة من أين يأتي هذا الماء إلى مراكش؛ فدخل بعض الأشخاص إلى القناة من النقطة التي يصل إليها الماء، وفي أيديهم مشاعل يستضيئون بها، ولما قطعوا بعض المسافة في القنوات أحسوا بهبوب ريح شديدة أطفأت مشاعلهم، ولها من القوة ما خيّل إليهم أنه لا عهد لهم بمثلها، وتعرضوا أكثر من مرة لخطر عدم إمكان الرجوع إلى الوراء؛ لأنه، بالإضافة إلى ذلك، كان مجرى الماء مسدودا بكتل حجرية ضخمة ينكسر عليها الماء ليمر من هذه الجهة وتلك، وأخيرا وجدوا حُفرا عميقة جدا حتى إنهم اضطروا إلى ترك محاولتهم، ولم يجْرُؤ أحد بعد ذلك على استئناف هذا العمل"[1]. وإلى حدود هذه النقطة، يقدم الوزان لنا وصفا يفيد محاولة بعض الحكام معرفة مصدر مياه المدينة، غير أن الجانب الخرافي للرواية يتضح في الجزء الموالي للحادثة؛ حيث تم تفسيرها، حسب قول المؤرخين، بـ"أن الملك الذي أسس مراكش توقع؛ بفضل معطيات بعض المنجّمين، أنه سيخوض معارك كثيرة؛ فأنجز بواسطة الفن السحري جميع هذه العوائق الطارئة في تلك القناة، حتى لا يعرف أي عدو من أين يأتي الماء إلى هذه المدينة، فلا يستطيع أن يقطعه عنها"[2].

وهذا ما يجعلنا نستنتج أن إنشاء قنوات جلب الماء لمدينة مراكش؛ حسب الحسن الوزان، قد ارتبط ببعض الإجراءات والطقوس السحرية التي تضْمَن أمن مياهها في حالة الحرب، وهو ارتباط يتعلق بخوف ساكنتها من استغلال الماء في الضغط عليهم، وإخضاع إرادتهم في حالات وقوع حروب محتملة. وبالتالي، فإن اختراع وترويج مثل هذه الروايات كان بدافع إرهاب العدو، وثنْيه عن

[1]- الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج1، م.س، ص 136.

[2]- نفسه، ص 136.

التعرض لمياه المدينة؛ فهو هاجس أمني حوّلته ساكنة المدينة إلى خرافة تضمن أمن قنوات مياه المدينة التي التصقت بذهنية السكان فيما بعد، ليتضح من جديد، مدى اعتماد الفكر الخرافي والبعد الغيبي، في تفسير بعض الظواهر، بل واستعماله كسلاح من أجل التأثير في أطراف أخرى؛ كما وقع في الرواية المتعلقة بالماء المذكور آنفا.

بل إن هذه المعتقدات الخرافية ارتبطت حتى ببعض الأفكار والمقدسات الدينية. وهنا نستحضر ما نقله الحسن الوزان عن سكان مراكش، في أثناء وصفه معالمَ هذه المدينة، من أنه يوجد، في وسطها، "جامع في غاية البهاء، تعلوه صومعة متناهية الجمال كذلك، في أعلاها ركّز عمود من حديد، فيه ثلاث تفاحات من ذهب، تزن ثلاثة عشر ألف مثقال (يعادل 60 كلغ)، أكبرها السفلى، وأصغرها العليا. وقد أراد كثير من الملوك أن يُزيلوا هذه التفاحات، ويسكّوها نقودا عندما اشتدت حاجتهم إلى المال، ولكنهم في كل مرة تحدث لهم حادثة غريبة تلزمهم بتركها في محلها، حتى إنهم تطيّروا من مسها، ولقول العامة إن التفاحات وضعت هناك تحت تأثير أحد الكواكب؛ بحيث يستحيل أن ينزعها أحد من مكانها. كما تقول إنّ من ركّز تلك التفاحات قرأ عليها عزائم سحرية ألزمت بعد الأرواح برصدها على الدوام."[1]

هذه رواية تؤكد مرة أخرى التشبث ببعض التفسيرات الخرافية لبعض الحوادث والظواهر، وتصديقها والإيمان بها. وفي بعض الأحيان، نجد هذه المعتقدات تكون تحت تأثير الجانب الديني، ودليلنا في ذلك ما نقله الوزان، وهو يصف أهل سوس، ذاكرا أنه "يوجد خارج ماسة على شاطئ البحر مسجد يقدسه الناس كثيرا. ويذكر عدد من المؤرخين أن المهدي المنتظر، الذي سيملأ الأرض عدلا؛ حسبما أخبر به النبي محمد صلى الله عليه وسلم، سيخرج من هذا المسجد. ويقال أيضا إن النبي يونس، عليه السلام، لما التقمه الحوت نبذ بالعراء في ساحل ماسة، وجميع العوارض التي تحمل سقف هذا المسجد من عظام سمك (البلين)، وكثيرا ما يحدث عندما يهيج البحر أن يقذف على شاطئ ماسة بعدد من هذه السمكات العظيمة ميتة، وهي مفزعة لضخامتها وبشاعة منظرها، وتمكين العامة أنه ما مرت سمكة من هذا النوع بقرب المسجد إلا ماتت بسبب البركة التي منحها الله لهذا المسجد[2]. ويضيف الرجل قائلا: "وكان يصعب عليّ أن أصدق ذلك لولا أني رأيت بعيني سمكات منها يقذف بها البحر ميتة كل يوم، وقد تميزت من ذلك، غير أني تحادثت فيما بعد مع شيخ يهودي من نفس المكان؛ فأخبرني بأنه لا عجب في ذلك؛ إذ يوجد في البحر على بعد نحو ميلين

[1]- الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج1، م.س، ص 131.
[2]- نفسه، ص 114.

من البر بعض الصخور العظيمة الحادة، فإذا هاج البحر ذهبت هذه السمكات هنا وهناك، وما اصطدم منها بتلك الصخور جرح ومات؛ ولهذا ينبذه البحر بعد ذلك على الساحل حيث نراه، فظهر لي أن هذا التأويل خير من تأويل العامة"[1]؛ فما رواه الوزان، هنا، يعكس مدى حضور البعد الديني لدى المغاربة، وتأثيره في الذهنية الجماعية للمغاربة لفكّ بعض الظواهر وتفسيرها، والبحث عن إجابات لها؛ كما هو الشأن بالنسبة إلى السمكات التي تتعرض للموت بالبركة. وهنا تستحضر مدى حضور مفهوم البركة، كمكون أساس من مكونات الذهنية المغربية، وطريقة تفكيرها ومعتقداتها، وكعنصر أساسي من عناصر تفسير بعض الظواهر، وربطها بما هو غيبي، وإعطاء الواقع تفسيرات ماورائية. إضافة إلى ما ورد في هذه الرواية، هناك الإيمان بفكرة المهدي المنتظر الذي سيملأ الأرض عدلا بعد أن ملأت جورا، من هنا تظل هذه معتقدات وأفكار ترسخت في فكر المغاربة، وأصبحت آلية من آليات تنظيم حياتهم وتحقيق الانسجام بالإجابة عن تلك الظواهر، ومن يقف وراءها مما أعطى نوعا من التوازن يمزج ما هو حسي بما هو غيبي، وهذه الثنائية تعد جوهر المعتقدات التي يؤمن بها المغاربة.

أيضا؛ من بين ما جاء في "وصف إفريقيا"، عند حديث الوزان عن أصناف الحيوانات، حديث عن الأُسد المنتشرة بالمغرب آنذاك، وقد نقل إلينا رواية، تصب في إطار مدى حضور الحيوان في المعتقدات الشعبية لدى المغاربة، في ارتباطه بالإنسان، إذ كتب على أنه سمع "من رجال ونساء كثيرين أن المرأة إذا وجدت نفسها أمام أسد في مكان منفرد إلا أن تكشف له عن عورتها فيزأر إذ ذاك الأسد زئيرا قويا ويغض الطرف ثم ينصرف. وليعتقد كل أحد ما شاء!"[2]، وهذا ما يعكس دائما ما يعتقده المغاربة ويسلّمون به.

2- معتقدات مرتبطة بظاهرة كرامات الأولياء والصلحاء

وارتباطا دائما بهذه المعتقدات، التي شكلت جزءا لا يتجزأ من البنية الثقافية للمجتمع المغربي، هناك ما يرتبط بظاهرة الكرامات والصلاح، أي الإيمان بكرامات الأولياء، و"حسن الوزان" في نصه، قد نقل إلينا في مواقع مختلفة مدى حضور هذه الظاهرة وانتشارها في أوساط المغاربة ومدى الإيمان القوي الذي يولونه لهذا الموضوع، وسنتناول بعض الأمثلة التي تبرز مدى تشبث المغاربة بتقديس الأولياء، والاعتقاد الراسخ في كراماتهم وبركاتهم واللجوء إليها لأغراض عدة، كآلية من آليات تنظيم حياتهم وتحقيق أهدافهم والتوازن داخل واقعهم الاجتماعي، فأعراب" تامسنا"

[1]- الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج1، م.س، ص114.

[2]- نفسه، ص266

يتركون "أدواتهم الفلاحية بالقرب من هذه الصومعة – صومعة مسجد في الوسط – عندما ينتهون من حرثهم، ويقولون أن وليا دفن هناك، فلا يأخذ أحد أدوات غيره خوفا من نقمة هذا الولي"[1]فهذا ما يوضح مدى إيمان المغاربة بالأولياء وخوارقهم، إذ يخضعون لسلطتهم الروحية، وخوفهم الشديد من الأذى الذي يلحقونه بهم في حالة ارتكاب أي سلوك يعد مخالفا وغير مرغوب فيه، و هنا سكان "تامسنا" استطاعوا أن يجعلوا من هذه المعتقدات المرتبطة بهذا الولي منظما لحياتهم، وضامنا لعدم وقوع أي سرقة، فكان هذه الإيمان بهذا الولي، وقدراته، آلية عفوية، استطاعت فرض نوع من النظام والانتظام داخل هذه الجماعات.

وفي موضع آخر، ودائما فيما يتعلق بالأولياء وكراماتهم، يذكر الحسن الوزان وهو يتحدث عن "تاغية" وسكانها بين جبال الأطلس، أنه يوجد "فيها ضريح ولي عاش في عصر الخليفة عبد المومن، يقال إن له كرامات عديدة ضد السباع، ومكاشفات عجيبة. وقد ترجم له ترجمة حافلة عالم يدعى "التادلي"، وذكر كراماته واحدة واحدة، وأعتقد شخصيا - بعدما قرأت قصة تلك الكرامات - أن الرجل كان يتصرف بفن سحري، أو باستعمال بعض الأسرار التي كانت له ضد الأسود. وشهرة هذه التصرفات، وتقديس العامة لهذا الولي الصالح، هما السببان اللذان جعلا الناس يشدون الرحال إلى هذه المدينة بكثرة؛ فيخرج أهل فاس لزيارة هذا الضريح بعد عيد الفطر من كل سنة، في جموع كثيرة رجالا ونساء وأطفالا، وكأنهم جيش زاحف..."[2]. وما نقله لنا هنا صاحب الرحلة يفصح عن اعتقاد المغاربة بدور الأولياء عبر كراماتهم في توفير الحماية للسكان، وإبعاد خطر الموت عنهم؛ بسبب الأسود في هذه المناطق؛ ومن هنا، نستنتج أن الإيمان بكرامات هؤلاء الأولياء، وتقديسهم، هو وليد الحاجة إلى الأمن، والحماية من الأخطار؛ فهذا الولي هو خير ملاذ يلجأ إليه السكان من أجل توفير الحماية؛ إذ إن تقديس هذا الولي نابع من البعد الوظيفي لكراماته؛ كما يعتقد سكان تاغية وغيرهم من المغاربة على العموم.

أضف إلى ذلك الوظائف الأخرى التي كانت تحققها ظاهرة الاعتقاد بهؤلاء الأولياء وكراماتهم؛ هذه الوظائف التي امتدت حتى إلى مجال الضرائب والجبايات، وهذا ما يعكسه أن سكان جبل "بقوية"، بالشمال، "لا يؤدون كثيرا من الخراج؛ لأن وليا مدفونا في بادس أصله من بلاد بقوية"[3].

[1]- الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج1، م.س، ص 199
[2]- نفسه، ص 205
[3]- نفسه، ص 330

وفي ضوء هذا، يتضح لنا مدى قداسة ظاهرة الأولياء وكراماتهم، التي آمن بها المغاربة إيمانا قويا، يعكس مدى اعتقادهم في قضاء حوائجهم، وتحقيق رغباتهم، بالاستعانة بالأولياء. ولذلك، كان الوزان دقيقا في رصد سلوكات ومواقف المغاربة في سياق هذه الظاهرة، التي تدخل ضمن المقدس، وخاصة "المقدس المجسد" (sacré figuratif)، الذي تحدث عنه "بيرك"، قاصدا به "كل المعتقدات والطقوس التي ترتبط بعبارة الأولياء وأضرحتهم"[1].. هذا المكانة، التي يحظى بها الأولياء، هي ناتجة عن الأدوار والوظائف التي تؤديها داخل النسق الاجتماعي للمجتمع المغربي، في اندماجها مع البعد الديني، فهي وإن غاب معناها الحقيقي بالنسبة للأفراد الذين يمارسونها فإنها تلعب دورا أساسيا في التحام الجماعة، وتُسْهم في تشكيل هويته الثقافية"[2].

3- معتقدات مرتبطة بالسحر والشعوذة

من بين العناصر الأساسية التي تدخل ضمن منظومة المعتقدات التي طبعت الذهنية المغربية، وترسخت في فكرها، ولم يغفلها الحسن الوزان في تدوين رحلته، إذ كانت من الأمور التي لفتت انتباهه فدونها وسجلها بكل عناية، وخصص لها محاور خاصة بها، الأمر هنا يتعلق ما يرتبط بالسحر والشعوذة وما يتعلق بالعرافة والتنجيم، فنقل إلينا صورة حية من هذه المعتقدات والظواهر الثقافية التي كانت حاضرة في أوساط المجتمع المغربي، وذلك من خلال عدة شواهد فصلها لنا في نص رحلته.

فالوزان حدثنا عن العرافين، وصنفهم إلى ثلاثة أصناف؛ يتألف الصنف الأول من الذين يتعاطون خط الرمل، فيرسمون عليه أشكالا، ويؤدى لهم عن كل رسم بحسب الموارد المتوفرة للشخص ووفقا للعادة.

ويضم الصنف الثاني العرافين الذين يجعلون الماء في قدر لمّاع، ويرمون فيه قطرة زيت فيصير شفافا، ويزعم العرافون أنهم يرون فيه كأنهم كتائب جيش تعسكر وتضرب الخيام، ويسلك بعض هؤلاء الشياطين طريق البحر، وبعضهم طريق البر. وعندما يرى العراف أنهم قد استراحوا، يطلب منهم ما يودّ معرفته؛ فيجيبونه بإشارات باليد أو العين (...). ويضع هؤلاء العرافون أحيانا القدر بين يدي طفل عمره ثمانية أعوام أو تسعة، ويسألونه هل رأى الجني الفلاني أو غيره؛ فيجيبهم الطفل الساذج بـ"نعم"، لكنهم لا يدعونه يتكلم وحده.

[1]- عبد الغني منديب، الدين والمجتمع، إفريقيا الشرق للنشر، ط1، 2011، ص 47
[2]- نفسه، ص 48

ويشتمل الصنف الثالث من العرافين على نساء يوهمْنَ العامة بأنهن يرتبطن بصداقة مع شياطين من أنواع مختلفة، يسمون بعضهم بـ"الشياطين الحمر"، وبعضهم بـ"الشياطين البيض" أو "السود"، وعندما يطلب منهم أن يتنبأن بشيء من الأشياء يتطيبن بعطور مختلفة الروائح، فيدخل فيهن الشيطان الذي دعونه حسب زعمهن، ويغيرن حينئذ أصواتهن ليوهمن أنه المتكلم بفمهن، والشخص الذي أتى لشيء يريد أن يعرفه، سواء كان رجلا أو امرأة يطلب ذلك من الروحاني بكثير من الاعتبار والضراعة، فإذا حمل على الجواب ترك هدية للشيطان وذهب إلى حال سبيله (...) وتطلب كثير من النساء اللواتي ينشرحن لهذه اللعبة من العرافات الدخول في طائفتهن، فيتظاهرن بالمرض ويستدعون إحداهن، وكثيرا ما يقوم الزوج الأبله لهذه المهمة، هناك يعبرن عن رغبتهم للعرافة، فتخبر الزوج بأن شيطان دخل إلى جسم امرأته، وإذا كان حريصا على صحتها فلا بد له من أن يسمح لها بالانتساب إلى طائفة العرافات والعمل معهن بحرية، فيصدق الزوج الغبي ذلك ويقبل، ويزيد في غباوته أن يصنع وليمة فخمة لجميع العرافات، وبعد تناول الطعام تقوم كل واحدة منهن إلى الرقص، ويحتفلن على أنغام جوق من الزنوج (كناوة) ثم يترك الرجل زوجته تذهب إلى المغامرة[1].

كما تحدث الوزان عن صنف آخر من العرافين، وهم "السحرة" أو "المعزمين"، "يعتبرون قادرين تماما على إنقاذ من اعتراهم مس من الشيطان، لسبب واحد هو أنهم يوفقون أحيانا في ذلك، وإذا لم يوفقوا زعموا أن الشيطان كافر أو أن الأمر يتعلق بروح سماوية ويكون التقويم بالطريقة التالية : يكتبون بعض الحروف، ثم يرسمون دوائر فوق تنورة أو غيره، ويخطون على يد المجنون أو جبينه بعض الإشارات، ويعطرونه بمختلف العطور وبعد ذلك يشرع الساحر في الرقية، ويسأل الروحاني كيف دخل الجسم، من أين أتى، ومن هو، وما اسمه، ويأمره في الأخير بالذهاب وهناك أيضا صنف آخر من الناس يعمل وفق قاعدة تدعى "الزايرجة" أي مخاطبة الأرواح لا يربطون عملياتهم بنصوص بل يعتبرونها جزءا من العلوم الطبيعية"[2]

هذا ما دونه صاحب "وصف إفريقيا" عن تعاطي سكان المغرب، لهذه السلوكات، المرتبطة بالسحر والشعوذة وما يتصف بهما من عرافة وتنجيم، وصف هذه الظاهرة بكل تفصيل، ومنتقدا إياها في نفس الوقت واصفا من يصدقون بهذه الظواهر بالسذاجة والحماقة، "إذ يثق الكثير من البلهاء بهؤلاء العرافين" لكن بعيدا عن موقف الوزان، من هذه المعتقدات، فهي تظل

[1]- الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج1، م.س، صص 262-263-264، بتصرف.
[2]- نفسه، صص، 264-265.

حاضرة في ثقافة المغاربة، وتظل جزءا أساسيا، من حياتها الاجتماعية، ناتجة عن مدى اعتقاد المغاربة في فعاليتها ومدى تحقيق بعض أهدافهم وقضاء حوائجهم، وهي ممارسات تهدف إلى الاحتماء بالقوى الغيبية في حدود معينة وعبر وساطات محددة، أو تهدف إلى الاحتماء من كل القوى والأخطار الفوق طبيعية التي تتربص بالناس للإيقاع بهم في فترات معينة من حياتهم، أو يكون القصد في هذه الممارسات والمعتقدات المرتبطة بالسحر والعرافة هو استشراف المستقبل والتنبؤ بالغيب، من هنا فإن "وصف إفريقيا" هو وثيقة مكنتنا بالفعل من النبش والحفر في ذاكرة المجتمع المغربي، من حيث هذه المعتقدات التي طالما ظلت سارية المفعول، بل إلى يومنا هذا، والاعتقاد الراسخ في فعاليتها وتحقيق ما يعجز الإنسان فردا وجماعة عن تحقيقه في واقعه المادي.

الخاتمة:

ختاما، وبعد رصد وتتبع بعض الممارسات والظواهر المرتبطة بالمعتقدات التي آمن بها المغاربة، كما نقلها إلينا "حسن الوزان"، بعين الإثنوغرافي العفوي، والوقوف عندها بالوصف والتحليل، نخرج بخلاصة، مفادها أن المجال المغربي ظل وعاء لظواهر عدة، تترجمها ممارسات ومعتقدات مغربية، والتي شكلت فضاء فسيحا أمام المغاربة؛ قصد تحقيق غايات، وقضاء حوائج، في وضعيات متعددة و مختلفة، وذلك في إطار تحقيق التوازن والطمأنينة بالواقع المادي للأفراد والجماعات، وذلك عبر الولوج عبر هذه المعتقدات إلى عالم آخر ما ورائي، تؤطره غيبيات كانت خير إجابات لعديد من الاستفسارات التي عجز الإنسان المغربي أن يجد لها تفسيرا انطلاقا من واقعه الملموس ووفق منطق علمي، وأمام هذا الوضع، كان ملاذه تلك المعتقدات ،فسلك طريقا من الممارسات والسلوكيات التي يعتقد أنها تسهل حياته، وتمنحه كل ما يحتاجه، لتصبح هذه المعتقدات مترسخة في ذهنيات المجتمع المغربي، مازلنا نلمس معالم و استمرار هذه المعتقدات في وقتنا الراهن، مما يؤكد مدى أهميتها، كجزء لا يتجزأ من بنية الثقافة المغربية، وإعطائها مكانة تطبعها القداسة، وإن كان كثير منها يتعارض مع التعاليم الدينية، إلا أن هذه المعتقدات ظلت حاضرة ومترسخة في وجدان المجتمع المغربي، واعتبارها ركنا أساسيا من أجل الاستمرار، فكانت سلطتها أقوى من أي اعتبار آخر، وهذا هو السر في امتدادها عبر الزمن وعبر أجيال مختلفة، وهذا ما سمح لنا به كتاب وصف إفريقيا بإعطائنا فرصة لاستنطاق الماضي والحفر في الذاكرة الثقافية الشعبية للمجتمع المغربي، وتسليط الضوء على هذا الجانب المهم من التاريخ؛ تاريخ الأفكار والمعتقدات، التي مازالت منحوتة في تفكير ووجدان المغاربة، إذ هي معتقدات ظلت من القوى المحركة و المنشطة لسلوكات وممارسات الفرد و الجماعة بالمجتمع المغربي.

لائحة المصادر والمراجع

- الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغربي الإسلامي، بيروت، ط2، 1983.
- محمد الجوهري، الدراسة العلمية للمعتقدات الشعبية، دار الكتاب للنشر القاهرة، ط1، 1978.
- عبد الغني منديب، الدين والمجتمع، إفريقيا الشرق للنشر، الدار البيضاء، ط1، 2011.
- نوال عبد الرحمان الشوابكة، أدب الرحلة الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، دار المأمون للنشر، عمان، ط1، 2008.